الدرس الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- وقف الحديث بنا عند فتح مكة، وما أدراك ما فتح مكة، هذا الفتح الذي أنزل الله -عزَّ وجلَّ- فيه سورةً، سميت باسم سورة النصر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: 1]، فرُبط النصر بالفتح، والفتح بالنصر، ثم جعل الله -عزَّ وجلَّ- هذا الفتح علامةً فارقةً في تاريخ السيرة النبوية، وفي حياته -عليه الصلاة والسلام-، وقد أخذ العلماء هذا من أمر الله -عزَّ وجلَّ- لرسوله -صلى الله عليه وسلم- بالاستغفار، فإنه لم يبق بعد هذا الفتح -صلوات ربي وسلامه عليه- إلا سنتان ونصف فقط، ولهذا أُمر بالاستغفار؛ لأن الإنسان عادةً مأمورٌ في أواخر عباداته، وفي أواخر حياته أن يُكثر من الاستغفار، في الصلاة نستغفر، إذا انتهينا من الحج ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 199]، هذا في يوم العيد، فهذه الإشارة في الآية، أو في السورة الكريمة، في قوله -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: 3] إشارةٌ إلى قرب أجله، كما فهم ذلك الحبر ابن عباس -رضي الله عنهما-، في حضرة أمير المؤمنين عمر، وسدده على هذا.
- هذا الفتح خلاصته: أنه في صلح الحديبية، دخلت خزاعة، وهي قبيلةٌ عربيةٌ معروفةٌ في حلفٍ مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، والأعراف العسكرية، والأعراف العربية في ذلك الوقت، أن من دخل في حلفٍ مع قومٍ، أن الاعتداء على هذا هو اعتداءٌ على من تحالف معه، وهذا ما يُسمَّى عند العرب على سبيل الأفراد بالجوار، فإذا دخل فلانٌ في جوار فلانٍ، خلاص فذمته ذمة هذا، فماذا حصل؟
- جاءت بنو بكر، ودخلت في عقدٍ مع قريش، أيضًا تحالفوا، فمن اعتدى على بني بكر، فكأنما اعتدى على قريش، فماذا حصل؟ لما ضُربت المدة، تذكرون في صلح الحديبية أشرنا إلى أنه وقع الصلح، والصلح وقِّع على أنه عشر سنواتٍ، أمن الناس بعضهم على بعضٍ، وفي تلك المدة ذهب أبو سفيان إلى هرقل، فسأله تلك الأسئلة المعروفة، وقال: نحن في هدنةٍ، أو في مدةٍ لا ندري ما الله صانع بنا.
- المهم: لما مضى من المدة سنةٌ وتسعة أشهرٍ تقريبًا، غدى نوفل بن معاوية الديلي في من أطاعه من بني بكر بن عبد مناف، فبيتوا خزاعة، يعني جاءوا لهم في الليل غارّين، يريدون أن يقتلوهم في الليل على ماءٍ لهم، فاقتتلوا هناك، فبمجرد نقض بني بكر للعهد واعتدائهم على خزاعة، حلفاء النبي -عليه الصلاة والسلام-، يعتبر الصلح انتهى، ولذلك جاء أكابر خزاعة إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- ليخبروه بما وقع، يستصرخونه ويستنصرونه، ويقولون: بينا وبينك عهدٌ، واعتُدي على جماعتنا، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-:

«أبشروا» ووعدهم بالخير، وبشَّرهم بالنصر، وأنذرهم، أن أبا سفيان سيقدم عليهم مؤكدًا العقد، وقال: انتبهوا، سيأتي إليكم أبو سفيان من مكة يا خزاعة، ويقول لكم: ترى اعتبروا هذه غلطةٌ يسيرةٌ، ومشُّوها، ولا تقفوا عندها، فانتبهوا أن تقبلوا العهد، أو تجددوا العقد، هذا القتل أصبح نقضًا للعهد، لحكمةٍ يريدها الله -عزَّ وجلَّ-.

- وبالفعل، جاء أبو سفيان، فلم يصنع شيئًا، حتى إن قريشًا ندموا على ما كان منهم، فجاء أبو سفيان، وذهب أبو سفيان إلى المدينة، ودخل على أم حبيبة، كما في القصة المشهورة، فعزلت أم حبيبة -رضي الله عنها- الفراش، كما في القصة المشهورة وقالت: أنت مشركٌ، ولا تطأنَّ فراش رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم ذهب إلى أبي بكر، إلى عمر، حاول يمينًا يسارًا أن يبحث عن واسطةٍ إلى عليٍّ بن أبي طالب -رضي الله عنه-، فلم يُفلح، حتى إن عليًّا -رضي الله عنه- وهو الداهية مع شبابه، وسنه الصغير نسبيًّا، أشار عليه عليٌّ -رضي الله عنه- أن يقوم هو فيجير بين الناس، ففعل، ورجع إلى مكة، فأعلمهم بما كان منه، فقالوا: والله ما زاد عليك عليٌّ أن لعب بك، يعني خدعه عليٌّ، قال: اذهب وأجر بين الناس، كيف تجير بين الناس والهدنة الآن منقوضةٌ، ونصف من كان في تلك المنطقة هم خصومك، وأعداؤك.
- فاستعد النبي -عليه الصلاة والسلام- في التجهيز لغزو مكة، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وبالفعل استعد بقرابة عشرة آلاف مقاتلًا، وخرج في اليوم العاشر من رمضان، من السنة الثامنة من الهجرة، ومعه المهاجرون، والأنصار، وعددٌ من قبائل العرب.
- لقيه عمه العباس، وهو متجهٌ إلى ذي الحليفة، وأسلم، ورجع معه النبي -عليه الصلاة والسلام-، وبعث بثقله إلى المدينة، يعني العباس رافق النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى مكة، ولكن الثقل الذي هم الأولاد والصبيان والصغار والنساء رجعوا إلى المدينة؛ لأنها هي مدينة النبي -عليه الصلاة والسلام-، وفيها الدولة هناك.
- في الطريق أيضًا في مكانٍ يقال له "نَيْقُ العِقَاب" وهو موضعٌ قريبٌ من الجُحفة، جاءه ابن عمه، وأخوه من الرضاعة، أبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية؟ أم سلمة، فأراد أن يسلما، أو يعلنا التوبة، أو كذا، فطردهما النبي -صلى الله عليه وسلم- لشدة عداوتهما، فشفعت فيهم أم سلمة -رضي الله عنها-، فقبل النبي -صلى الله عليه وسلم- وأسلما وحسن إسلامهما -رضي الله عنهما وأرضاهما-، حتى إن أبا سفيان هذا هو الذي أمسك بخطام البغلة في حنين، التي ستأتي في شهر شوالٍ، بعد فتح مكة.
- فصام النبي -عليه الصلاة والسلام- في الطريق، حتى بلغ ماءً يُقال له الكُديد، فأفطر في قصةٍ معروفةٍ.
- أما قريش، فقد استجاب الله -عزَّ وجلَّ- دعاء نبيه -صلى الله عليه وسلم- بما قال: **«اللَّهمَّ عَمِّ عنها أخبارنا»**، ولم يقع في ذلك الوقت خبرٌ إلا ما فعله حاطبٌ بن أبي بلتعة -رضي الله عنه-، وقد كان من أهل بدرٍ، فماذا فعل؟ كتب كتابًا إلى أهل مكة، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء إليكم، ولم يفعله ردَّةً، ولم يفعله خيانةً لله ولرسوله، لكن أدركته شفقةٌ على أهله الموجودين في مكة، والذين لم يكونوا من قريش، فخشي إن دخلت جيوش المسلمين، أن يُستأصلوا، ولا يجدون أحدًا يؤويهم، ولذلك يقول: كنت امرؤًا في قريش، مُلصقًا فيهم ولست منهم، يعني هو عربيٌّ، لكنه ليس من قريش، القرشي في مكة، إن كان من عديٍّ ذهب إلى بني عديٍّ، وإن كان من بني أمية ذهب إلى بني أمية، وإن كان من بني هاشم، كل واحدٍ يذهب إلى جماعته على طريقة العرب.

- فلما علم النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذا بإخبار الله -عزَّ وجلّ- له، أرسل إلى المرأة التي كان معها هذا الخطاب، ومعه عليٌّ، والزبير، فأحضر الخطاب، فاستدعى حاطبًا، وقال: **«ما حملك على ما فعلت؟»** فذكر له السبب.
- أراد عمر بن الخطاب أن يقتله، فقال: **«لا، إنه من أهل بدرٍ، وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدرٍ، فقال: اعملوا ما شئتم فقط غفرت لكم».**
- إذن، حاطبٌ أخطأ، وكان خطؤه يستحق القتل، لأنه نوعٌ من الخيانة، ولكنه لم يفعل ذلك بهذا القصد، فعفا عنه النبي -صلى الله عليه وسلم- لسابقته بالإسلام، ومن كان من أهل بدرٍ، لا يمكن أن يكون في قلبه نفاقٌ أبدًا.
- المهم عُمِّيت الأخبار، وركب العباس بغلة النبي -عليه الصلاة والسلام-، في مقدمهم، وكانت خزاعة لما اقترب النبي -عليه الصلاة والسلام- كان هناك جماعةٌ من قبيلة خزاعة، أضرموا النيران بشكلٍ كبيرٍ جدًّا، حتى قال أبو سفيان: يقول -رحمه الله- نقرأ النص هنا، يقول: وأما قريش فعمَّى الله عليها الخبر، إلا أنهم قد خافوا وتوهَّموا من ذلك، فلما كانت تلك الليلة، ليلة الفتح يعني، خرج أبو سفيان، وبديل بن ورقاء، وحكيم بن حزام، لازالوا على الكفر، يتجسسون الخبر، فلما رأوا النيران التي حول مكة، استنكروها، قال بديل: لعل هذه نار خزاعة، يعني القبيلة، قال: خزاعة أقل من ذلك، يعني الأمر مهولٌ، يعني هناك جيشٌ جرارٌ يأتي الآن يغزونا.
- وركب العباس -رضي الله عنه- ليلة إذ وخرج، انظر إلى مبادرته -رضي الله عنه-، وهذه حسنةٌ من حسناته، لعله يلقى أحدًا من أكابرهم، وبالفعل لقي أبا سفيان، وقال: ما وراءك يا أبا سفيان؟ ويحك! هذا رسول الله قادمٌ، واصباح قريش، العباس عنده شفقةٌ على قومه، أن يستأصلوا على الكفر، بعدما ذاق لذة الإسلام، وبالمناسبة هو الذي روى حديث: **«ذاق طعم الإيمان، من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم- نبيًّا»** ، فقال: ما الحيلة؟ قال: والله لئن ظفر بك رسول الله ليقتلنك، ولكن اركب خلفي على الناقة على الدابة وأنا أذهب بك إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لتُعلن إسلامك.
- فصار في - انقطاع في الصوت - إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: **«ائتني به غدًا صباحًا»** ، فلما أصبح عرض النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه الإسلام، تلكأ قليلًا، مازال فيه شيءٌ من أنفة الجاهلية، وأنفة العرب، الرجل سنُّه كبيرةٌ جدًّا في ذلك اليوم، ثم زلّ لسانه -رضي الله عنه- وأسلم، وأعلن الشهادة، فالعباس كان ذكيًا وعاقلًا، يا رسول الله، إن أبا سفيان يحب الشرف، يعني أعطه كلمةً تشجعه قليلًا، فقال: **«من دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ»** ، انبسط أبو سفيان، مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **«من دخل داره فهو آمنٌ»** ، لكن هذا من إنزال الناس منازلهم، أبو سفيان كان رقم واحدٍ في قريش في ذلك اليوم، فأعطاه النبي -صلى الله عليه وسلم- شيئًا من الدفعة المعنوية؛ لتدفعه، ولتثبته، وليكون مؤثرًا في من تحته.
- المقصود: أن النبي -عليه الصلاة والسلام- سار إلى مكة، وجعل الجيش مقدمةً وميمنةً وميسرةً وقلبًا، كان على المقدمة أبو عبيدة، وعلى الميمنة خالد بن الوليد، والزبير بن العوام على الميسرة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- في القلب، في تقسيمٍ يطول.

- المقصود: أن النبي -عليه الصلاة والسلام- دخل مكة على ناقته، -صلى الله عليه وسلم-، وعلى رأسه المِغفر، معناه أنه لم يكن يريد أن يعتمر، والمِغفر هو الذي يتقي به المقاتل ضرب السيوف والسهام، وكان يقول -رحمه الله-: ورأسه يكاد يمس مقدمة الرحل، تعرفون الذي يركب على البعير، يكون أمامه مثل شداد هذا، بحيث يتمسك به، لا يسقط، يقول: وكان مطرقًا برأسه هكذا، تواضعًا لله -عزَّ وجلَّ-، هكذا يتواضع العظماء إذا جاء نصر الله، وهكذا يتواضع العظماء عند تجدد نعم الله -تبارك وتعالى-، وقد أَمَّنَ النبي -صلى الله عليه وسلم- الناس جميعًا، إلا مجموعةً اشتد أذاهم لله ولرسوله، فأهدر دماءهم، وقال: **«اقتلوهم، ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة»**.
- فنجا من هؤلاء عكرمة بن أبي جهل، هرب إلى جهة اليمن، فأدركته زوجته بعد، فجاءت به، وأجارته، وعرض عليه الإسلام، فأسلم -رضي الله عنه-، وحفظ النبي -صلى الله عليه وسلم- له الجانب المعنوي، وقال: **«لا تؤذوه في أبيه»**، يعني هو ابن أبي جهل الكافر المعروف، وقال: **«إن سب الميت يؤذي الحي»**، انظر عظمة الخُلق النبوي -عليه الصلاة والسلام-، حتى هؤلاء مع أنهم كفارٌ، لا يريد أن يؤذيهم؛ لأن أذاهم يؤذي الأحياء؛ لأن علاقة النسب موجودةٌ، والآصرة هذه الفطرية موجودةٌ.
- فسلم منهم -كما قلت- سلم من هؤلاء الذين أُهدرت دماؤهم عكرمة، ثم صلى النبي -صلى الله عليه وسلم- شكرًا لله ثماني ركعاتٍ، وهذه الثمانية اختلف العلماء، هل هي صلاة الفتح، أم هي صلاة الضحى، وقد صلاها سعد بن أبي وقاص، حينما فتح فارس، وصلاها بعض الفاتحين، ومنهم من يُذكر محمد الفاتح، لما فتح القسطنطينية، يُقال أنه صلى ثمانية، العمدة عندنا هنا على فعل الصحابة -رضي الله عنهم-.
- أيًّا ما كان، سواءٌ سميت صلاة الأمر فيه محل اجتهادٍ، لكنه -صلى الله عليه وسلم- صلاها بأربع تسليماتٍ شكرًا لله -عزَّ وجلَّ-، والله تعالى يقول: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: 13]، وقال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: 51]، ورأس الأعمال هي الصلاة، فمن أراد أن ينظر إلى هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، وترجمته العملية للشكر، فلينظر إلى مثل هذا الموقف.
- ثم بقي النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا بالمفتاح، وقال لكفار قريش الموقف المشهور: **«ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟»**، قالوا: أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ، قال: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»**، فعلها تأسِّيًا بأخيه يوسف -عليه الصلاة والسلام-، الذي أمره الله أن يقتدي به ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: 90]، وهو الذي قال لإخوته بعدما فعلوا به ما فعلوا: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: 92]، وقد جاء في بعض الطرق هنا في كتب السير وغيرها: لا أقوم لكم إلا كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 92].
- وأنا أقول هنا بالمناسبة لإخواني وأخواتي: ألا ما أحوجنا في مثل هذا الموقف أن نتأسى بسيدنا ورسولنا -صلى الله عليه وسلم-، يقع بين بعض الناس وللأسف الشديد مواقف والله لا تساوي عُشر معشار ما وقع للنبي -عليه الصلاة والسلام- من الأذى الحسي والمعنوي، ومع ذلك يأبون إلا أن تكون الدنيا حاجزةً بينهم وبين إخوانهم، قد يهجر الإنسان أخاه، أو يهجر الأب ابنه، أو الابن أباه -والعياذ بالله- على لعاعةٍ من الدنيا، لا تساوي شيئًا، فأقول لكل من كبرت بينهم الدنيا، ووجدت بينهم الحواجز، وأبغض الإنسان أخاه، أو الأخت أختها لأجل دنيا، هذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تأسوا به، وقولوا بلسان الحال والمقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ

عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 92]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «لا يحل لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاثٍ، يلتقيان، فيُعرض هذا، ويُعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام».

- لو لم يكن من فتح مكة من درسٍ وعبرةٍ في حياتنا اليومية، إلا هذا الدرس لكفى، وإني والله وكل مسلمٍ يحزن ويتقطع قلبه ألمًا حينما يسمع بأسرةٍ تصدَّع بنيانها، أو بآصرة الأخوة، تصرَّمت وتقطَّعت بسبب دنيا فانيةٍ، وعلى شيءٍ يمكن التصالح والتفاهم عليه، والله المستعان.
- قال -رحمه الله-: وكان الفتح لعشرٍ بقين من رمضان، لاحظوا العشر الأولى انطلق فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- من مكة إلى المدينة، ثم الفتح تم بعد عشرة أيامٍ، فبقي -عليه الصلاة والسلام- العشر الأواخر كلها يصلي ركعتين، وأفطر تلك الأيام، كما ذكر الحافظ ابن كثير، وخطب يوم الفتح الخطبة العظيمة، التي بيَّن فيها حرمة مكة، وشرفها، في خطبةٍ معروفةٍ، ثم بعث السرايا حول مكة، من أجل أن يكسر شأفة من يحاول أن يشوِّش من قبائل العرب، التي مازال في بعضها بقايا من الدين الجاهلي.
- ومن جملة السرايا التي بعثها النبي -صلى الله عليه وسلم-: بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، وهي منطقةٌ قرابة ثمانين كيلو جنوب مكة، جهة يلملم، وهناك دعاهم خالد بن الوليد إلى الإسلام، فأرادوا أن يقولوا: أسلمنا، فما قالوا: أسلمنا، ماذا قالوا: صبأنا، والصبأ في اللغة العربية أصله الانتقال من دينٍ إلى دينٍ، فما أحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فقتلهم خالد، فلما رجع خالد إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «ماذا صنعتَ؟»، قال: قالوا كذا وكذا، فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد» ، هو لم يقل: أبرأ إليك من خالد؛ لأن البراءة هنا وقعت من الفعل، أما الفاعل فكان مجتهدًا، ولما كان مجتهدًا دفع النبي -صلى الله عليه وسلم- ديات هؤلاء، الذين قُتلوا بسبب خطأٍ من أحد القادة الذين بعثهم -عليه الصلاة والسلام-.
- ثم بعثهم إلى العُزى اليمانية، أيضًا في جنوب مكة، ودمَّرها -رضي الله عنه- تدميرًا، وهي التي كانت أيضًا مما يئس أن تُعبد في جزيرة العرب.
- ثم ، ذكر إسلام عكرمة بن أبي جهل، لما قلنا: اتجه إلى ساحل اليمن، وكذلك أيضًا صفوان بن أمية، فر إلى اليمن، فتبعه عمير بن وهب بأمانٍ من النبي -عليه الصلاة والسلام-، ثم أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه.
- بعد فتح مكة، في شهر رمضان من سنة ثمانٍ، جاءت، انتبهوا الآن، عندنا ثلاث غزواتٍ، كأنها عقدٌ منظومٌ، في أقل من شهرين، لتدركوا بركات هذا الشهر العظيم على هذه الأُمَّة، شهر جهادٍ، شهر عزَّة، ما هو شهر نومٍ وكسلٍ، لا، فجاءت غزوة حنين.
- حنين لعل المخرج الكريم يُظهر لنا الصورة، حنين، وبعضهم يسميها أوطاس، عام أوطاسٍ، وبعضهم يسميه عام حنين، كلها قريبةٌ من جهة مكة، ولها سببٌ، لكن ننظر إلى الموضع الآن، هنا مكة شرَّفها الله في الزاوية اليمنى من الأسفل، وهنا حنين، ومازالت موجودةً إلى اليوم، وهنا في هذه الجهة وادي أوطاس، والمنطقة متقاربةٌ، ولذلك إذا قرأت في كتب السير، ستجد بعضهم يسميها غزوة حنين، وبعضها يسميها غزوة أوطاس، والمعنى واحدٌ، وكلها وقعت في شوال من السنة الثامنة، بعد فتح مكة بأيامٍ، ولذلك المؤرخون يقولون: إن الذين قاتلوا في حنين، هم الذين قاتلوا في فتح مكة، لكن زاد معهم آلفان من الطلقاء، الذين أطلق النبي -صلى الله عليه وسلم- سراحهم، أو أسلموا حديثًا، وهم الذين قالوا لما ذهبوا إلى غزوة حنين، لما وجدوا

الشجر مُعلَّق عليها أنواطٌ، قالوا: اجعل لنا ذات أنواطٍ، كما لهم ذات أنواطٍ، هؤلاء الذين قالوها هم الذين أسلموا قبل أيام، فمازال عند بعضهم بقايا من دين الجاهلية، بالتبرك وغير ذلك.

- فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «قلتم والذي نفسي بيده...» إلى آخر القصة المعروفة.
- استخلف النبي -صلى الله عليه وسلم- على مكة صحابيًّا صغير السن، لكنه عظيم القدر، اسمه عتَّاب بن أسيد، وأنا أقول لإخواني الشباب والفتيات، هذا الشاب اسمه عتَّاب بن أسيد، وأنا أقرأ هذا الخبر، كنت أتساءل وأقول: يا ترى ما الصفات التي وُجدت في هذا الشاب في صغر سنه، ليستخلفه النبي -صلى الله عليه وسلم- على أخطر مدينةٍ في الدنيا، وهي مدينة مكة، التي حُرِّرت قبل قليلٍ من المشركين، يعني يتوقع أن يوضع فيها قائدٌ كبيرٌ، أليس كذلك؟ لكنه استخلف هذا الرجل، وقطعًا هو لم يُستخلف إلا لأنه كفءٌ، فأنا أتساءل أيها الشباب، فتِّشوا في سيرة عتَّاب.
- والسؤال: لو كنت أنت في ذلك الوقت، وعمرك عشرون، تتوقع يستخلفك النبي -عليه الصلاة والسلام- أم لا؟ انظر في صفاتك الآن، هل هي صفات قيادةٍ؟ صفات قوةٍ في الإدارة؟ هل عندك من القوة الدينية والإيمانية والإدارية وغير ذلك من المهارات والقوى المعنوية ما تجعلك أهلًا لأن تقود؟ أو تكون بهذه المكانة؟ والله إنني واثقٌ، أن هذا السن لا تستحيل معه هذه الصفات القوية، لكن المشكلة أن كثيرًا من الشباب والفتيات هُمِّشوا، وأصبحوا -كما يُقال- على هامش الحياة، أصبح غاية مراد هذا الشاب في هذه السن -إلا من شاء الله- ما نوع الجوال الذي يمتلكه، ما نوع السيارة التي يمتلكها، ما هي الوظيفة التي يمتلكها، كم الراتب، إلى آخره، قضايا دنيويةٌ، أنا لا أقول لا تهتم، هذه الأشياء فطريةٌ، والاهتمام بها عادي، لكن أن تطغى لتصبح هي الأصل، فهنا تكون الكارثة.
- فكِّر يا أخي، اجعل لك موضع قدمٍ في هذا الدين، بصمةٌ تُبقيها في حياتك، لعل الله -عزَّ وجلَّ- ينفع بك، ويهدي بك.
- المهم: أن النبي -عليه الصلاة والسلام- نهض، فوافى حنينًا، وهذا يقول ابن كثير: وادٍ حدورٌ من أودية تهامة، وقد كمنت له فيه هوازن، هذا سبب الغزوة، هوازن بقوا هناك كما تلاحظون في الخريطة، لاحظوا الآن الوادي هنا، الذي لونه أصفر تقريبًا، وبرتقالي مخططٌ يسيرٌ، هذه الجهة لو مرينا السهم من هذه الجهة، لاتجهنا إلى الطائف، فهذه مناطق هذه القبائل هوازن. هوازن الآن لما شعرت، وجاءتها الأخبار النبي -صلى الله عليه وسلم- قدم إلى مكة أرادوا أن يكمنوا له؛ لأن عادة هؤلاء المتربصين، ينتظرون ضعف هذا الجيش؛ ليستغلوا هذه الثغرات الموجودة، الضعف والتعب لأجل أن يقبوا، ولكن حصل عكس ما يقصدون، لكن انتبهوا، أول ما دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- وادي حنين، أُعجب بعض الناس، وخصوصًا الطلقاء بكثرة هذا الجيش، فماذا قالوا: لن نُغلب اليوم من قلَّةٍ، فلما بدأت الغزوة، وكانت هوازن قد جمعت معها بعض أوباش العرب، فكاد المسلمون أن ينكسروا في أول الغزوة، وهذه من حكمة الله، وهذه ظاهرة في الآية: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: 25] لماذا؟ لأن هؤلاء وقع منهم التفاتٌ إلى سببٍ من أسباب النصر، وليس هو السبب الحقيقي، فأراد الله أن يؤدبهم، ويقول لهم: انتبهوا! ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 126]، ذاك جيشٌ أطهر ما مشى على الأرض، قائده محمدٌ -عليه الصلاة والسلام-.

والقادة الذين معه هم خير الأجناد، ولكن أراد الله -عزَّ وجلَّ- أن يؤدب هؤلاء؛ لأجل أن لا يعتمدوا على شيءٍ إلا على الله -عزَّ وجلَّ-، مع فعل الأسباب الممكنة.

- فثبت النبي -عليه الصلاة والسلام-، وثبت أكابر الصحابة، وكاد بعضهم أن يفر فنادى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم أمر العباس؛ لكون صوته قويًّا وجهوريًّا، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب كذا، يا أصحاب كذا، قال: فانعطفوا عطفة البقر على أولادها، فرجعوا، ثم كانت والحمد لله الغلبة لأهل الإيمان، وفيها ركب النبي -صلى الله عليه وسلم- بغلته التي أهداها إليه صاحب دومة، وهو يقول: **«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»**، -صلى الله عليه وسلم-.
- وهنا أيضًا حصل من هوازن، أنهم قُتلوا، وأُسر منهم من أُسر، وقُتل منهم من قُتل، ولم يأت آخر الغزوة، إلا وقد أحضر الصحابة -رضي الله عنهم- الأسارى بين يديه -صلوات الله وسلامه عليه-، وقد ألقى الله -عزَّ وجلَّ- الرعب، والخوف في قلوب هوازن، فرجعوا فلم يملكوا أنفسهم، ورماهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بقبضةٍ كانت معه، من حصباء، فلم يبقَ منهم أحدٌ إلا نالها، وبهذا حصل النصر لأهل الإسلام، وانحازت انتهوا، هنا لما تكلمنا قبل قليلٍ، وقلنا: إن بعضهم يسميها غزوة أوطاس، انحازت، يقول ابن كثير: طوائف من هوازن إلى أوطاسٍ، فبعث النبي -عليه الصلاة والسلام- إليهم أبا عامر الأشعري، واسمه عبيد، وهو عم أبي موسى الأشعري، وهو الذي قُتل واستغفر له النبي -صلى الله عليه وسلم-، أمَّا المشركون، يقول الحافظ -رحمه الله-: قُتل منهم خلقٌ كثيرٌ، أما الصحابة فلم يُقتل منهم في حنين إلا أربعةٌ.
- ثم بعد هذا جاءت غزوة الطائف، وهي أيضًا في شوالٍ، في نفس السنة، وسببها أن ملك هوازن، مالك بن عوف النصري، وهو أحد الزعماء الذين ثوَّروا الحرب في حنين، لما انهزم جيشه، دخل مع ثقيفٍ في حصن الطائف، ورجع النبي -عليه الصلاة والسلام- من حنين، فلم يدخل مكة، بل ذهب إلى الطائف، وحاصر ثقيفًا هناك، قيل: بضع وعشرين ليلةً، وقيل: بضع عشرة ليلةً، والصحيح أنهم بقوا أربعين ليلةً كما ثبت في الصحيحين من حديث أنس -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-.
- وقد خرَّب النبي -صلى الله عليه وسلم- كثيرًا من أموالهم الظاهرة، وقطع أعنابهم وزروعهم، ولم ينل منهم كبير شيءٍ، فرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- فأتى الجعرانة، يعني القصة جاءت تفاصيلها في السنة بشكلٍ أكثر، يعني لما حاصر النبي -صلى الله عليه وسلم- لاحظوا، قال: **«إنكم ملاقوا عدوكم»** ، وضربهم بالمنجنيق، يعني مما استُخدم في تلك الغزوة، مما لم يُستخدم من قبل المنجنيق، لكن رجع النبي -عليه الصلاة والسلام- ، وأتى الجعرانة، وهناك أتاه وفدٌ من هوازن، لما شعروا بالكسر والهزيمة، فأسلموا قبل أن تُقسم الغنائم، فخيَّرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بين ذراريهم وأموالهم، فاختاروا الذرية، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«أما ما كان لي ولبني المطلب فهو لكم»** ، وتتابع المهاجرون والأنصار، وقالوا: ما كان لنا، فهو لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-.
- ثم قسم النبي -صلى الله عليه وسلم- بقية الغنائم على المسلمين، وتألف جماعةً من سادات قريش، فصار يعطي هذا مائةً، وهذا خمسين من الإبل، وأعطى كما في صحيح مسلم من حديث الزهري، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أعطى صفوان بن أمية ثلاثمائةً من الإبل.

- هنا في هذه الغزوة، عتب بعض الأنصار على النبي -صلى الله عليه وسلم-، كيف إذا جاءت الحرب نُدعى، وإذا جاءت الغنائم أُعطي هؤلاء الكفار، أو الذين أسلموا حديثًا الغنائم، وتُركنا؟
- فناداهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال: **« مقالةٌ بلغتني عنكم يا معشر الأنصار»** ، سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم عاتبون، وهذا من صراحتهم، يعني يقولون: نحن نتوق، ولنا حقٌّ في الغنيمة، أين حقنا؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«ألم أجدكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي؟ ألم أجدكم متفرقين فجمعكم الله بي؟»**، قالوا: بلى يا رسول الله، بلى يا رسول الله، ثم قال: **«أما والله»**، انظر رد النبي -صلى الله عليه وسلم- معنوياتهم، وأعطاهم من الدفعات المعنوية ما يساوي الدنيا كلها، قال: **«أما ترضون يا معشر الأنصار، أن يرجع الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى رحالكم؟»** فوضعوا رءوسهم، ولهم خنينٌ، بكاءٌ، ثم قال: **«يا معشر الأنصار، أما والله لو قلتم لصدقتم: ألم تكن طريدًا فآويناك؟ ألم تكن غريبًا فنصرناك»** أو كلمةً نحوها، وفي كل مرةٍ يقول الأنصار: الله ورسوله أَمَنْ، الله ورسوله أَمَنْ، فكأنما أعطاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- غنائم الدنيا كلها، وليس غنيمة حنين.
- وهذا يحتاج إلى درسٍ آخر، أو وقفاتٍ طويلةً، لكن هذه إشارةٌ عابرةٌ، إلى حرصه -عليه الصلاة والسلام- على علاج ما يقع في القلوب من عتبٍ، وأن لا يهمل المربي سواءً كان أبًا أو مشرفًا على مجموعةٍ من الشباب، ما يقع في النفوس من هذه الثغرات؛ لأنها لو بقيت لاتسعت، بل يبادر مباشرةً إلى ردمها، وإلى علاجها، حتى لا تكبر ويدخل منها الشيطان، فما أفسد، والله أقولها من واقعٍ ومعرفةٍ بالتأمل، ما أفسد قلوب كثيرٍ من الدعاة إلى الله -عزَّ وجلَّ-، ولا المشتغلين بالتربية، إلا إغفال إصلاح القلوب مباشرةً، فتجد بعض الناس يبقى في نفسه على أخيه شيءٌ ويتركه، ثم يأتي موقفٌ ويتركه، حتى تكبر، ثم يتركهم وينصرف، طيب يا أخي إذا وقع في نفسك شيءٌ، أو أنت وقع في نفسك شيءٌ على أختك، اذهبي إليها، وقولي أو قل أنت أيها الرجل: والله يا أخي الموقف الفلاني حصل منك كذا وكذا وكذا، وأنا عاتبٌ، قد يبيّن لك من الملابسات ما يجعلك تعرف أنك أنت المخطئ وليس هو، أو قد يرضيك بكلمةٍ، أو قد يعتذر، وهنا يغضب الشيطان، أو يتعس الشيطان؛ لأنه لم يستطع أن ينجح في التفريق، ويرضى بذلك الرحمن.
- ثم تكلم على قسمة الغنائم، وأشار إلى قصة ذي الخويصة التميمي، الذي طعن في قسمة النبي -صلى الله عليه وسلم-، واعتمر يقول من الجعرانة، ودخل مكة، فلما قضى عمرته، ذهب إلى المدينة، وأقام على الناس يومئذٍ في الحج عتَّاب بن أسيد.
- ثم جاءت سنة تسعةٍ من الهجرة، في شهر رجب، جاءت غزوة تبوك، وهي التي سماها الله -عزَّ وجلَّ- غزوة العُسرة، سماها في سورة التوبة.
- وسبب القصة: أن النبي -عليه الصلاة والسلام- أعلم الصحابة والناس أن الروم سيزحفون، فتقدم النبي -صلى الله عليه وسلم- مسافةً طويلةً جدًّا تتجاوز أربعمائة كيلو، لم ينتظر النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى يأتي الروم، ويتاخموا حدود بلاد المسلمين، بل تقدَّم إليهم، وهذا من الذكاء العسكري، لماذا؟ لأن التقدم يوصل رسالةً إلى العدو أني قوي، وأنني عندي جيوشٌ، وأنني أستطيع أن أغزوكم في دياركم.

- وبالفعل النبي -صلى الله عليه وسلم- أعلم الناس، وهي الغزوة الوحيدة التي صرَّح للناس بأنه متَّجهٌ إلى تبوك، بعكس البقية الغزوات، كان إذا أراد غزوةً ورَّى بغيرها؛ نظرًا لطول الطريق، وشدة المؤنة، وهذا الجيش مما أكرم الله -عزَّ وجلَّ- به عثمان أن تكفَّل بتموينه، وقال: **«ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم»** ، هو الذي جهَّز جيش العُسرة، وأنفق فيه -رضي الله عنه- نفقةً عظيمةً.
- أشار إلى قصة البكائين، ثم لما بلغ تبوكًا مرَّ بطريقه بالحجر، وأمر الصحابة أن لا يدخلوا ديار الذين عُذِّبوا، وهم قوم صالح في العُلى، موجودةٌ مدائن صالح هذه، إلا أن تكونون باكين، معتبرين، لا تدخلوها وتتفرجوا، كما يفعل بعض السيَّاح اليوم، يقول: أروح أتفرج، على ماذا تتفرج؟ هذه بلادٌ عُذِّب أهلها، لا تدخلها إلا وأنت باكٍ، ما معنى باكٍ؟ ليس المعنى أن تبكي وتخرج دموعك، المقصود أن تدخل معتبرًا، تدخل ليس تتفرج وصور وكأن الأمر في زيارة حديقةٍ، أو في زيارة منطقةٍ بحريةٍ، لا، هذه منطقةٌ عُذِّب فيها قومٌ عصوا الله، وعصوا رسوله -عليه الصلاة والسلام-، وقتلوا ناقةً جعلها الله -عزَّ وجلَّ- علامةً.
- فالمقصود: حصر هناك من الآيات لكن لم يلق النبي -صلى الله عليه وسلم- عدو، سمِّيت غزوة؛ لأنه عزم فيها على القتال، وسميت أيضًا غزوةً لكون النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضًا شارك فيها، لكن المقصد الأكبر منها تحقق، وهو إرهاب العدو، وهذا أحد المقاصد الشرعية في إعداد الجيوش، وحصل في تلك القصة منها قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا، وتخلف ثمانون منافقًا، وأناس تخلفوا وهم معذورون، فالناس انقسموا إلى ثلاثةٍ، منهم معذورون، ومنهم غير معذورين، ومنهم عصاةٌ من المنافقين، ومنهم عصاةٌ من المسلمين تاب الله عليهم -عزَّ وجلَّ- بعد ذلك.
- وفي هذه القصة أيضًا، في رجوعه -عليه الصلاة والسلام- أمر بهدم مسجد الضرار، ثم أشار -رحمه الله- إلى قدوم وفد ثقيف، ثقيف هؤلاء أين كانوا؟ في الطائف، وكان قدومهم في شهر رمضان، في سنة تسعٍ من الهجرة، يعني بعد غزوة تبوك بشهرين، وفي هذه المدة، من شهر رمضان تقريبًا، وما بعده، إلى قرب وفاته -عليه الصلاة والسلام-، كثرت الوفود التي قدمت إلى المدينة لتعلن إسلامها؛ لأن أكثر الجزيرة العربية خضعت له -صلى الله عليه وسلم-، ودخلت في الإسلام، لكن بقيت بعض القبائل، فلما رأوا أن الإسلام قويت شوكته، وأن الدولة قويت، صارت القبائل تأتي لتبايع، والبيعة غالبًا تأتي من أقوامٍ، ليس بالضرورة أن تأتي كل القبيلة، يأتي سراتها، وقوادها.
- فأسلموا، الذين وفد ثقيفٍ، وكان سبب ذلك أن عروة بن مسعود -رضي الله عنه- جاء إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- حينما انصرف من حنين والطائف، وقبل وصوله إلى المدينة أسلم واستأذن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الرجوع إلى قومه، وبالفعل رجع، ودعاهم إلى الله -عزَّ وجلَّ-، ولم يستجيبوا له، فماذا فعلوا؟ رموه بالنَّبل وقتلوه، فندموا، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب النبي -عليه الصلاة والسلام-، فجاءوا إلى المدينة، وأسلموا، ودخلوا في دين الله تعالى، وأنزلهم في المسجد، وضرب لهم قبَّةً، كما ذكر الحافظ -رحمه الله تعالى-، وأسلموا، واشترطوا شروطًا بيَّنها هنا.
- في هذه السنة وهي السنة التاسعة من الهجرة، أمر النبي -عليه الصلاة والسلام- أبا بكرٍ أن يحج بالناس، قال -رحمه الله-: وبعث -صلى الله عليه وسلم- أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- أميرًا على الحج هذه السنة، السنة التاسعة، وأردف عليًّا، يعني لما ذهب أبو بكر، أمر عليًّا أن يلحقه، ومعه سورة براءة، والتي مفتتحها ﴿بَرَاءَةٌ

مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ [التوبة: 1، 2]، فأراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يعطيهم فرصةً، إما أن تسلموا، وإما بعد هذه المدة تنتهي المعاهدات، وتنتهي العقود.

- مما أُعلن في تلك الحجة، وهي السنة التاسعة، أنه لا يحج بعد العام مُشركٌ، ولا يطوف بالبيت عريانٌ. أما لا يحج بعد العام مُشركٌ؛ لأن مكة أصبحت بلد إسلامٍ، ولذلك لم يهاجر أو لا تصح الهجرة بعد ذلك من مكة، أو لا تثبت لها صفة الهجرة؛ لأنها أصبحت بلد إسلامٍ، ولذلك قال -عليه الصلاة والسلام- في حديث ابن عباس في المتفق عليه: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيَّةٌ» ، لماذا؟ لأن الهجرة إنما تكون من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام.
- وأما لا يحج في البيت بعد العام عريانٌ، لأن من عادة قريش في الجاهلية أنهم إذا أرادوا الطواف بالكعبة، خلعوا ثيابهم، بزعمهم ماذا؟ أن هذه ثيابٌ عصوا الله فيها، فيريدون أن يلبسوا ثيابًا تعطيهم إياها قريش، فعجبٌ، هم الآن هذه الثياب كيف ما عصوا الله فيها، وهم يُشركون الليل والنهار؟ لكن هكذا الشرك، يُبنى على أمثال هذه الخرافات، يعني حتى الرجال والنساء، لكن في هذه المنطقة يعظِّمون الكعبة، وهم مشركون، فلا يُفكر أحدٌ أن يعتدي على امرأةٍ بالزنا، أو شيءٍ من هذا القبيل، حتى الرجال والنساء يطوفون عراةً، وفي ذلك تقول المرأة في الجاهلية:
- "اليوم يبدو بعضه أو كله" تشير إلى منطقة العورة.

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

- يعني إذا خرجت العورة ما أحل أحد يناظر، يعني تكشف، وتقول للناس لا ترون، وهذا شيءٌ مُضحكٌ.
- على كل حالٍ، نبذ النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى المشركين عهودهم، إلا من كان ذا عهدٍ مقدَّرٍ فعهده إلى مدته، كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: 4].
- ثم بعد ذلك تواترت الوفود، وفي تلك السنة، بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- معاذًا إلى اليمن، وأبا موسى الأشعري، وكذلك بعث الرسل إلى أقطار الدنيا، وملوك الأرض، الذين كانوا قريبين، بعث إلى الروم، وبعث إلى مصر، وبعث إلى المقوقس حاكم مصر، وغيرها من الديار والجهات. فأسلم من أسلم، وعاهد منهم من عاهد، وكابر منهم من كابر.
- ثم انتقل -رحمه الله- إلى الكلام على حجة الوداع، وليس من شأننا هنا أن نستعرض حجة الوداع؛ لأن الجانب الفقهي فيها أكثر وأبرز، فتُطلب في مظنَّتها، لكن من الأشياء التي نشير إليها مما يتعلق بالسيرة النبوية هنا: أن المدينة جاءها عددٌ كبيرٌ جدًّا من القبائل التي حولها كلهم يريدوا أن يأتم برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويتأسى به، كما ذكر ذلك جابر -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-.
- خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم السبت ظهرًا، ثم صلى الظهر في المدينة أربعًا، وصلى في ذي الحليفة العصر ركعتين، وبقي فيها إلى الغد. ثم سار برعاية الله وعنايته حتى وصل إلى مكة، ثم أدى المناسك، وكان قارنًا -عليه الصلاة والسلام-، وكان معه الهدي، في قصةٍ معروفةٍ، وقدم عليٌّ -رضي الله عنه- ببقية البُدن من اليمن معه، والتقوا هناك في مكة، في قصةٍ معروفةٍ، ساقها المؤلف -رحمه الله- باختصارٍ شديدٍ.

- ولكن من المواضع أيضًا التي نشير إليها في هذا المقام: أنه -عليه الصلاة والسلام- خطب الناس في حجة الوداع، وكأنه يودِّعهم، ففي أول الحجة قال: **«خذوا مناسككم، فإني لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»** ، وقد وقع كما قال -عليه الصلاة والسلام-، ثم في حجة الوداع، في يوم عرفة، وقال في يوم العيد أيضًا خطب يوم النحر، كما في حديث أبي بكرة في الصحيحين: **«إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعةٌ حرمٌ، رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم»** ، ثم قال: **«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، اللهم هل بلغت، اللهم فاشهد، اللهم هل بلغت، اللهم فاشهد، اللهم هل بلغت، اللهم فاشهد.»** ، يشير بأصبعه إلى الصحابة -رضي الله عنهم-، وهنا حقٌ على كل مؤمنٍ، أن يقول: اللهم إنا نُشهدك أن رسولك -صلى الله عليه وسلم- بلَّغ البلاغ المبين.
- وهنا ابن كثير -رحمه الله- علَّق بهذا التعليق، قال: فنحن نشهد أنه بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأُمَّة -صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين-.
- ثم لما انتهت الحجة، رجع -عليه الصلاة والسلام- راشدًا مؤيَّدًا إلى المدينة، وقد أكمل الله له دينه، كما في آية المائدة، وهي الآية التي قال فيها اليهودي: لو علينا معشر يهود نزلت الآية، لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا.
- ثم ختم المؤلف هذه السيرة العطرة، بفصلٍ في وفاته -صلى الله عليه وسلم-، قال: فأقام فيها، أي في المدينة بقية ذي الحجة، والمحرم، وصفر، ثم أول ربيعٍ، فابتدأ به وجعه -صلى الله عليه وسلم-، في بيت ميمونة يوم خميسٍ، وكان وجعًا في رأسه الكريم، وكان كثيرًا ما يُعاوده الصداع، ولذلك احتجم -عليه الصلاة والسلام- في حجة الوداع من صداعٍ كان يعاني منه -صلى الله عليه وسلم-.
- فجعل ينتقل في بيوت نسائه، واسمعوا أيها المعددون، كان ينتقل مع بداية المرض، مع أن القسْم لا يجب عليه، كما قال أكثر أهل العلم، فلما رأى أن التنقُّل يتعبه، استأذن من نسائه أن يُمَرَّضَ في بيت عائشة -رضي الله عنها-، فأذنَّ له، فَمُرِّضَ في بيتها، ومات بين سحرها ونحرها، ومات في حجرها -رضي الله عنها وأرضاها-.
- فيا أيها المعددون، يا من أوجب عليكم العدل في القسم، اتقوا الله تعالى في نسائكم، واعدلوا بينهن، فإن هذا أمرٌ أمركم الله به، وشرطٌ من شروط التعدد، قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: 3]، هذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يترك العدل في أقسى اللحظات التي مر بها، حينما هُزمت العافية في جسده الشريف -صلى الله عليه وسلم-، ومع ذلك، لم يترك العدل، بل استأذن زوجاته -رضي الله عنهن-.
- يقول: فمكث واجعًا اثني عشر يومًا، وقيل: أربعة عشر يومًا، وهذه كلها في بدايات ربيع، من ربيع الأول من سنة إحدى عشرة، قال: والصديق -رضي الله عنه- يصلي بالناس بنصه -صلى الله عليه وسلم- عليه، يعني هو الذي قال: **«مروا أبا بكرٍ فليصلي بالناس»**.

- قال: فلما حصل الوجع، تربَّصوا لينظروا ما يكون من أمره -عليه الصلاة والسلام-، وقد صلى -صلى الله عليه وسلم- خلف الصديق جالسًا، بسبب المرض، وقُبض -عليه الصلاة والسلام- ضحى يوم الاثنين، من ربيع الأول، والمشهور أنه الثاني عشر منه، وبعضهم قال غير ذلك.
- المهم، مات -عليه الصلاة والسلام- وكان عمره على الصحيح في قول جماهير أهل العلم: ثلاث وستين سنةً، لما مات -عليه الصلاة والسلام- اشتدت الرزية بالصحابة -رضي الله عنهم-، وحُقَّ لهم ذلك، حتى إن عمر -رضي الله عنه- وهو عمر، في إيمانه، وقوة تصديقه، ويقينه، كان يقول: لا والله، ما مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بل ذهب إلى ربه كما ذهب موسى، وليرجعن فليقتلن وليقطعن رقاب المنافقين.
- قال أنس -رضي الله عنه- مُعبّرًا عن هذه الرزية التي أصابتهم بموته -صلى الله عليه وسلم-، وحُقَّ لهم ذلك: قدِم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة، فأضاء منها كل شيءٍ، فلما مات أظلم منها كل شيءٍ.
- والإنسان وهو يتذكر مصيبة موته -صلى الله عليه وسلم-، يحتسبها، فوالله إنها من أعظم المصائب، إذا ابتُلي الإنسان بمصيبة موت قريبٍ أبٍ، أمٍّ، أخٍ، أختٍ، ابنٍ، إلى آخره، فليتذكر مُصابه بحبيبنا وسيدنا محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، فما رُزيت الأُمَّة بمصيبة أعظم من وفاته -عليه الصلاة والسلام-.
- أبو بكر -رضي الله عنه- كان في مزرعته بالسنح، وهي مزرعةٌ قريبةٌ من المدينة جهة العوالي، كان إذا خف النبي -صلى الله عليه وسلم- وشعر بشيءٍ من العافية تسري في جسده، ذهب، فلما قُبض النبي -عليه الصلاة والسلام- طلبه الطالب، وجاء بسرعةٍ -رضي الله عنه وأرضاه-، فلما جاء وإذا هو مسجًّى، بأبي هو وأمي -صلى الله عليه وسلم-، وقد غُطِّيَ وجهه، فكشفه، فأيقن حينئذٍ أنه قد مات، فقبَّله وقال: أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذقتها، ووالله لا يجمع الله عليك موتتين.
- ثم دخل إلى المسجد، فرأى عمر قائمًا على المنبر، يقول مقولته التي ذكرناها قبل قليلٍ، فقال: اجلس يا عمر، ثم صعد أبو بكر -رضي الله عنه-، وقال: أيها الناس، من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]، عمر -رضي الله عنه- لما سمع الآية، قال: والله ما كأنها أُنزلت إلا ذلك الوقت؛ لأن الإنسان إذا جاءته المصيبة العظيمة، يطيش عنده التفكير، تذهب عنه الأدلة، فكيف إذا كانت المصيبة فقْد محمدٍ -عليه الصلاة والسلام-؟ الذي امتلأت أعينهم من رؤيته، امتلأت قلوبهم من محبته -عليه الصلاة والسلام-.
- ثم لما قُبض -صلى الله عليه وسلم-، اختلفوا أين يُدفن، فأخبر أبو بكر أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «إن الأنبياء يُدفنون حيث ماتوا» ، فلما مات -عليه الصلاة والسلام- وقُبض في حجرة أمنا عائشة -رضي الله عنها- دُفن فيها، واختلفوا، هل يُغسَّل، يعني يُجرَّد من ثيابه أو لا يُجرَّد، فتقول كتب الرواية والسير: أنه أُلقي النُّعاس عليهم، وسمعوا مناديًا ينادي: أن اغسلوا رسول الله في أثيابه، طاهرٌ مطهَّرٌ -عليه الصلاة والسلام-، حتى عرقه مسكٌ، بأبي هو وأمي وما أملك -عليه الصلاة والسلام-، فغسَّلوه في ثيابه، ثم دخلوا عليه أفرادًا وأفذاذًا، ابتدأ الكبار، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم صُلِّيَ عليه -صلى الله عليه وسلم- في يوم الثلاثاء، وقيل يوم الأربعاء، في الموضع الذي توفي فيه -صلى الله عليه وسلم-.

- أيها الإخوة والأخوات، هاهنا تتلعثم الكلمات في الفم، وتنقطع الأفكار حينما يتحدث الإنسان عن هذا الموقف العظيم، موقف وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن في الوقت نفسه، يقول الإنسان مذكِّرًا نفسه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: 144]، فيا من تحبون محمدًا -عليه الصلاة والسلام-، وتعظمون سيرته، مات بشخصه -عليه الصلاة والسلام-، وبقي دينه، وبقيت سنته، والسعيد والله كل السعادة، من كان يحرص ويجتهد أن يكون ناصرًا لدين الله -عزَّ وجلَّ- ، ولو بشطر كلمةٍ، معينًا على نشر السنة، بمظهره وبكلامه، وبسلوكه، وبعمله، بعيدًا عن البدعة التي حذَّر منها -صلى الله عليه وسلم-، حريصًا على اقتفاء سنته في ظاهره وباطنه، في خلوته وفي جلوته، ومن حرص على اتباع السنة في مثل ما ذكرنا، يُرجى له أن يُحشر معه -صلى الله عليه وسلم-، ومن ادعى محبته، فليسلك طريقته، أما من يدعي محبته، ثم تراه يخالف سنته في الظاهر، أو يخالف سنته في القول والعمل، فذاك ادعاءٌ ناقصٌ.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

